Cordova Journal
ISSN-printing: 2302-3155
Vol. 7, No. 1, 2017
http://ejurnal.iainmataram.ac.id/index.php/cordova

البعد الاجتماعي للغة

د. حسين محمد حسين البطاينة
جامعة البلقاء التطبيقية
كلية اربد الجامعية الأردن
Email: X.yceeh@yahoo.com

ملخَّص

يهدف البحث في البعد الاجتماعي في اللغة إلى الكشف عن بعض صور تَأْثيرِ اللغةِ في المجتمع وتأثيرِ المجتمع والبيئة في اللغة وما تحتاجه البيئة من ألفاظ و تراكيب تقتضيها هذه البيئة ويرصد البحث حياةَ اللغةِ داخلَ الأَوساطِ الاجتماعيَّةِ وأثر اللغة في المجتمعات واستعمال لغة المجتمع لكشف آليات تفكير هذا المجتمع ومعتقداته، وتشكُّل الجزر اللغويَّة في محيط لغويٍّ مختلف وعلاقة اللغات المتجاورة وما يتخلَّلُها من اقتراضٍ لغويٍّ، ويتناول كلًّاً من الثابت والمتغيِّر في اللغة والجانب الجمالي لها واللغة كعرفٍ اجتماعيٍّ.

مقدمة

ليسَ المقصودُ بالبعدِ الاجتماعيِّ للغة تلك الوظيفةَ الاجتماعيَّةَ المعروفةَ للغة، بل المقصودُ أَوسعُ وأَشملُ من ذلك، فما الوظيفةُ الاجتماعيَّةُ للغةِ إِلَّا جزْءٌ من كُلٍّ، أَي: هي جزْءٌ من البعد الاجتماعيِّ الذي يشملُ هذه الوظيفةَ، ويشملُ غيرها من علاقاتِ التَّأثُّرِ والتَّأثيرِ بين اللغة والنَّاسِ، تَأْثيرَ اللغةِ في المجتمع، وتأثيرَ المجتمع في اللغة، وحياةَ اللغةِ داخلَ الأَوساطِ الاجتماعيَّةِ، وأَثرَ الظَّواهرِ الاجتماعيَّةِ من رُقيٍّ وانحطاطٍ وفقرٍ وغنىً وحروبٍ وكوارثَ في المسارِ العامِّ للغة.

وقد قيل قديماً: اللغةُ كائنٌ حيٌّ ينمو، ويترعرعُ، ويشبُّ، ويشيبُ، ويمرضُ، ويموتُ، مثلُهُ في ذلكَ مثلُ الكائناتِ الحيَّةِ التي تتفاعلُ مع المحيطِ الاجتماعيِّ لها.

فالمحيطُ الاجتماعيُّ المتخلِّفُ يفرزُ أَفراداً متخلِّفين مرضى فقراءَ شاذِّين لأَنَّهم تأثَّروا بهذا المجتمع المتخلِّفِ، وكذلكَ المجتمعُ الرَّاقي الملتزمُ المحافظُ يُفرزُ أَفراداً طّيِّبينَ نافعينَ راقينَ أَصحَّاء.

فاللغة وحدها بمعزل عن الاستعمال المجتمعي لها تسهم في ٧٪ فقط في عملية التواصل، بينما يسهم التفاعل الاجتماعي في ٩٣٪ منها عبر لغة الجسد ونبرة الصوت، وهذا ما أكَّدته إحدى الدراسات التي أُجريت عام ١٩٧٠، والتي أجراها رايموندبيردويسل في جامعة بنسلفانيا[١].

في العصور القديمة كالعصرِ الجاهليِّ مثلاًنجدُ أَنَّ اللغةَ العربيَّةَ كانتْ مرآةً صادقةً جليَّةً عن طبيعةِ الحياةِ الاجتماعيَّةِ في ذلك العصرِ، نقلتْ بأمانةٍ

١ إيفون أوزوالد، لكل كلمة قوتها، مكتبة جرير، الرياض، ط١، ٢٠٠٩، ص١٥٣.

أَساليبَ حياتهم وطبائعَ أَخلاقِهم وطرائقَ تفكيرِهم، فكانتْ بحقٍّ الناقلَ الأَمينَ المبينَ، ولم يكن العصر الجاهليُّ كما يظنُّه الكثيرونَ عصرَ انحطاطٍ وجهلٍ ومساوئ أَخلاقٍ كما توحي به التَّسميةُ، بل على العكسِ من ذلكَ سادتْ فيه مكارمُ الأَخلاقِ وفضائلُ الأَعمالِ ومروءَاتُ الرجال، ولا شيْءَ أَدلُّ على ذلكَم من قولِ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

إِذن فثمَّةَ أَخلاقٌ كريمةٌ في لك العصر، لكنَّها ناقصةٌ، فجاءَ الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لإِتمامها، وإِكمال نقصِها، وحُقَ له ذلكَ وقد مدَحَهُ جلَّ وعلا بقولِه: «وَإِنَّكَلَعَلَى خُلُقٍعَظِيمٍ»[٢].

واشتهرَ من شعراءِ الجاهليَّة الفحولِ شعراءُ تفاخرُوا بمحاسنِ أَخلاقهم، وعلى رأسهم عنترةُ بن شدَّاد العبسي، فقد جاء في شعره قولُه:

أَغضُّ طرفي ما بدتْ لي جارتي حتَى يواري جارتي مأوَاها[٣]

فاللغةُ إِذن قناةٌ اجتماعيَّةٌ تُنقَلُ عبرَها مظاهرُ المجتمعِ وأَخلاقُ النَّاسِ، فالشُّعراءُ نقلُوا أَفكارَهم إِلى محيطِهم الاجتماعيِّ عبر الشعر، والتَّاريخ نقلَ لنا حياةَ المجتمع الجاهليِّ عبر اللغة شعراً ونثراً.

فاللغة تنقل الحكمةَ إِلى أفرادِ المجتمع كما في قول زهير بن أبي سُلمى:

ومَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فيبخل بفضلِهِ * على قومِهِ يُسْتَغْنَ عنهُ ويُذْمَم

ومَنْ يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرضِهِ * يَفِرْهُ ومَن لا يتَّقِ الشَّتمَ يُشْتَم

٢ القلم/٤.

٣ الخطيب التبريزي،شرح ديوان عنترة العبسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص ٢٠٦.

ومَنْ يجعلِ المعروفَ في غيرِ أَهلِهِ * يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عليهِ ويَنْدَمِ[٤]

واللغةُ تنقلُ المعرفةَ والتَاريخ والعلوم والآدابَ وغيرَ ذلكَ، هي إذن صورةُ المجتمع، وهي ذاتُ بعدينِ في آنٍ؛ إنَّها صورةُ المتكلِّم (الفردِ)، وصورةُ المتكلِّمين (المجتمع).

واللغةُ أَيضاً مقياسٌ حقيقيٌّ وموضوعيٌّ لمعرفةِ المستوى الحضاريِّ للمجتمع، فكلُّ مجتمعٍ له معجمُهُ اللغويُّ الخاصُّ بهِ، وهذا المعجمُ اللغويُّ هو عبارةٌ عن الأَلفاظِ والتراكيب والأَساليب والأَمثالِ وكلِّ أشكالِ اللغة وصيغها المستعملة فيه.

والمجتمعات ذاتُ بُعدَين:

البعدُ الأَوَّلُ بعدٌ تزامنيٌّ أَي: تُزامنُ وجودَ المجتمعات في مرحلةٍ زمنيَّةٍ أَو عصرٍ واحدٍ، وهذه علاقةٌ أَفقيَّةٌ.

والبعد الثَّاني بعدٌ تطوريٌّ تاريخيٌّ أَي: العلاقةَ بين المجتمعات المتراكمةِ المتعاقبةِ زمنيًّا كالعلاقةِ بين بين المجتمعات في العصر الجاهلي والعصر الإِسلامي والعصر الأموي والعباسي وهكذا، وهذه العلاقة عموديَّةٌ رأسيَّةٌ

فسواءٌ أَكانَ المجتمعُ في علاقةٍ أُفقيةٍّ أو علاقةٍ عموديَّةٍ فلكلِّ مجتمعٍ معجمُهُ اللغويُّ.

فإلى جانبِ الوظيفةِ الاتِّصاليَّةِ التي تضطلعُ اللغةُ بها فإنَّها تقومُ بتأسيسِ العلاقاتِ الاجتماعيَّةِ بينَ الأَفرادِ النَاطقين بها، وإنشاءِ الروابطِ النفسيَّةِ بينَ الفردِ ومجتمعهِ، وإذا كانت اللغة تؤثِّرُ في نظرةِ النَّاطقين بها إلى الكون فإنَّ المحيطَ الاجتماعيِّ يؤثِّرُ بدورِهِ في اللغةِ أَصواتاً ومفرداتٍ وتراكيبَ، وهذا

٤ ديوان زهير بن أبي سُلمى، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص١١٠-١١١.

التَّأثيرُ المتبادلُ يُضخِّمُ أَهمِّيَّةَ دور اللغةِ في عملية التنمية الشَّاملة التي في مقدِّمة متطلَّباتها تعميمُ المعرفةِ العلميَّةِ والتِّقْنِيَّةِ بين المواطنين بلغةٍ يفهمونها ويتداولونها، وينطبقُ فيها المصطلح على المفهوم انطباقاً تامَّاً بحيثُ تتمُّ عمليَّةُ التَّواصلُ المطلوبةُ دونَ أَيَّةِ حواجزَ ناتجةٍ من أَيِّ عنصرٍ من عناصرِ العمليَّةِ التَّواصليَّة.

التَّأثيرُ المتبادل بين اللغة والمجتمع:

لقد مكَّنت اللغةُ الإنسانَ من إيجادِ نوعٍ من التَّنظيمِ الاجتماعيِّ يختلفُ نوعيَّاً عن التَّنظيماتِ الحيوانيَّةِ، فعلى حين تقومُ التَّنظيمات الحيوانيَّةُ على الغريزةِ، وتنتقل من جيلٍ إلى آخرَ بالمورِّثاتِ (الجينات) تنبني التنظيماتُ الإنسانيَّةُ على التعلُّمِ، وتنتقلُ من جيلٍ لآخرَ بالتَّواصلِ اللغويِّ والتُّراثِ الثقافيِّ منطوقاً ومكتوباً.

وهي أيضاً تسهم كما يرى باحثون في تأسيس العلاقاتِ داخل المجموعات البشرية ودعمها[٥]، وحجَّتهم في ذلكَ التَّأخُر المسجَّلُ في الهندسة اللسانيَّة بسبب حصر النظر إلى اللغة في مظهرها الشكلي دون الأخذ بعين الاعتبار استعمالَ الناس للغة في المجتمع[٦].

وهناكَ تفاعلٌ بينَ اللغة والبيئة الاجتماعيَّة وتأثير متبادلٌ بينهما، فكما أَنَّ اللغة تؤثِّرُ في نظرةِ النَّاطقين بها إلى بيئتهم، فإنَّ البيئة تؤثِّرُ بدورها في اللغةِ أَصواتاً ومفرداتٍ وتراكيبَ[٧].

---

٥ آن روبول وجاك موشلار، التداوليَّة اليوم، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، ص١٢.

٦ التداولية اليوم، ص١٣.

٧ القاسمي، ص٥٨.

فقد يلجأ أبناء الطبقات المترفة كالأَرستقراطيَّة والبرجوازيَّة إِلى استعمال كلمات وعباراتٍ أجنبيَّة من منطلقِ التباهي والاستعلاء والتمايز عن بقيَّة أفراد المجتمع، ويرى بعض الباحثين أنَّ هذا التَّصرُّف هو سلوكٌ مرضيٌّ يزيد في الأَزمة المصطلحيَّة تعقيداً ويولِّدُ قلقاً في المجال التداولي في البيئة اللغويَّة الواحدة[٨].

ومن الأَدلَّة على هذه الفكرة البيئة الثلجيَّة للأسكيمو التي تؤدِّي إِلى تداول أَصواتٍ ومفرداتٍ معيَّنةٍ تختلفُ عن تلكَ التي تستعملُ في بيئةٍ صحراويَّةٍ[٩].

فإِن كان للعربيَّةِ بضعُ كلماتٍ تعبِّرُ بها عن أَنواعِ الثَّلج المتساقطِ فإِنَّ لغةَ الأسكيمو تشتمل على عشرات المفرداتِ لأَنواعِ الثلجَ المختلفةِ في أَوضاعٍ متباينةٍ[١٠].

ومثل ذلك التَّأثير أثرُ البيئة الصحراويَّةِ على العربيَّةِ الفصحى في العصر الجاهليِّ مثلاً، حيث نجدُ معجم المجتمع الجاهليِّ يزخرُ بمفرداتٍ كثيرةٍ للمسمَّى الواحدِ بحيث يكون الفرق بين هذه الأَسماءِ في صفةٍ قد تكون خفيَّة لا يدركها إِلَّا أبناء هذه البيئة، فنجد في معجم هذا المجتمع أَسماء الوحوش والهوامِ والأَنعام وكثرةَ المترادفات لكلِّ اسمٍ يدلُّ عليها، فأطلقوا أسماء كثيرة على الأَرض الواسعة منها ما ذكره الثَّعالبي في كتابه فقه اللغة، فقال: » إذا اتَّسَعَتِ الأَرْضُ ولَم يَتَخَلَّلْهَا شَجَرٌ أو خَمَرٌ فهي الفَضَاءُ والبَرَازُ والبَرَاحُ، ثُمَّ الصَّحراءُ، ثُمَّ العَرَاءُ، ثُمَّ الرَّهَاءُ والجَهْرَاءُ، فإذا كانت مسْتَوِيَةً مع الاتِّساعِ فهيَ الخَبْتُ والجَدَدُ، ثُمَّ الصَّحْصَحُ والصَّرْدَحُ، ثُمَّ القَاعُ والقَرْقَرُ، ثُمَّ القَرِقُ والصَّفْصَفُ، فإذا

٨ بسَّام احمد العلي، أزمة المصطلح في الوطن العربي، مجلَّة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، العدد ٥٩٦، السنة ٥٢، عام ٢٠١٣، ص٢٤٦.

٩ القاسمي، ص٥٨.

١٠ القاسمي، ص٥٩.

كَانتْ مَعَ الاسْتِوَاءِ والاتساعِ بَعِيدَةَ الأَكْنَافِ والأَطْرَافِ فَهُوَ السَّهْبُ والخَرْقُ، ثُمَّ السَّبْسَبُ والسَّمْلَقُ والملَقُ، فإذا كَانَتْ مَعَ الاتِّساعِ والاسْتِوَاءِ والبُعْدِ لامَاءَ فِيها فَهِيَ الفَلاةُ والمَهْمَهُ. ثُمَّ التَّنُوفَة والفَيْفَاءُ، ثُمَّ النَّفْنَفُ والصَّرْمَاءُ، فإذا كَانَتْ مع هذِهِ الصّفَاتِ لا يُهتَدَى فيه اللطَّرِيق فهيَ اليَهْمَاءُ و الغَطْشَاءُ، فإذا كَانَتْ تُضِلُّ سَالِكَها فهيَ المُضِلَّةُ والمُتِيهةُ، فإذا لمْ تَكُنْ لها أَعْلامٌ ومَعَالمُ فهيَ المجْهَلُ والهَوْجَلُ، فإذا لم يَكُنْ بها أثرٌ فَهِيَ الغُفْلُ، فإذا كَانَتْ قَفْرَاءَ فَهِيَ الْقِيُّ، فإذا كَانَتْ تُبِيدُ سَالِكَها فَهِيَ البَيْدَاءُ، والمَفَازَةُ كِنَاية عنها»[١١].

ومثل ذلك كثير في المعجم اللغوي لمجتمعات هذه البيئة كأسماء الخيل والإبل وغيرها.

ومن الأَمثلِة التي تُساقُ على تأثيرِ التغيُّراتِ الاجتماعيَّةِ في التَّطوُّرِ اللغويِّ ما طرأَ على اللغةِ العربيَّةِ ودلالات مفرداتها وأَساليبها بعد ظهور الاسلام[١٢].

وأَبرزُ مظهر من مظاهرِ تأثيرِ البيئة الإسلاميَّةِ في اللغةِ العربيَّةِ ظهورُ عدد هائلٍ من المصطلحاتِ الإسلاميَّةِ الجديدةِ التي لم تكن معروفةً قبل الإسلام، أو كانت معروفةً ولكن بدلالاتٍ مختلفةٍ، فجاءَ الإسلامُ وحمَّلَها دلالاتٍ جديدةً لأَغراضٍ دينيَّةٍ كلفظِ الصَّلاةِ الذي كانَ معروفاً بمعنى الدُّعاءِ، فجاءَ الشَّرعُ وجعلَ هذه اللفظةَ مصطلحاً يعني الصلاةَ التي يعرفُها المسلمونَ من حركاتٍ مخصوصةٍ في أَوقاتٍ معروفةٍ، وما إلى ذلك من معاني الصَّلاة.

يضربُ أَصحابُ علم اللغةِ الاجتماعيِّ المثلَ بالتغيُّرات التي طرأت على اللغة الروسيَّةِ نتيجةِ التَّحوُّلاتِ الاجتماعيَّةِ في روسيا منذ عام ١٨٦٠ للميلاد

١١ الثَّعالبي، فقه اللغة وسر العربيَّة، تحقيق: عبدالرزاقالمهدي، إحياءالتراث العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص١٩٥.

١٢ القاسمي، ص٥٩.

حيث تمَّ تحريرُ الأَقنان (عبيد الأَرض) عام ١٨٦١، ثمَّ دخولُ روسيا الحرب العالميَّة الأَولى، ثم الثَّورةُ البلشفيَّةُ عام ١٩١٧، فالمزارعُ الجماعيَّةُ، فالحربُ العالميَّةُ الثَّانيةُ، فسقوطُ الشُّيوعيَّةِ، وهي أَحداثٌ أَدَّتْ إِلى تغيير التَّركيبةِ الاجتماعيَّةِ في روسيا، وانعكسَ ذلكَ على بنية اللغة الروسيَّةِ وأَلفاظها[١٣].

ومن ناحيةٍ أُخرى ثمة تفاعلٌ بين اللغةِ والاقتصادِ وتأثيرٌ متبادلٌ بينهما، فنحنُ نعلمُ أَنَّ حاجاتِ الإِنسانِ الأَساسيَّةَ تتمثَّلُ في المأكلِ والملبسِ والمسكنِ، ولكي يؤمِّنُ الإِنسانُ هذه الحاجاتِ الأَساسيَّةَ اضطرَّ إِلى توسيعِ دائرةِ نشاطهِ الاقتصاديِّ خارج حدودِ العائلةِ والقريةِ والقبيلةِ ليتبادلَ السلعَ مع الآخرين، ما أَدَّى إِلى احتكاكٍ لغويٍّ نتجَ عنهُ أَحياناً تعلُّمُ لغةِ الآخرين، أو اختيارُ إِحدى اللغتينِ لغةَ تعاملٍ بينيَّةً، أو ظهورُ لغةٍ مشتركةٍ جديدةٍ كما ظهرت اللغةُ الملاويَّة بوصفها لغة مشتركة بين اللغات الملاويَّة البولونزيَّة، وكما تطوَّرتْ اللغةُ الإِيطاليَّةُ الحديثةُ نتيجةَ التِّجارةِ بين المدنِ الإِيطاليَّةِ كجنوة وفينيسيا وبيزا في القرون الوسطى[١٤].

وثمَّةَ تداخلٌ وتشابكٌ بين الوظيفةِ الاجتماعيَّةِ والوظائفِ اللغويَّةِ الأَخرى، فاللغةُ ظاهرةٌ فكريَّةٌ إِنسانيَّةٌ لا يمكنُ أَنْ تنشأَ إِلَّا في مجتمعٍ يحتاجُ أَفرادُهُ إِلى التَّعاملِ بعضهم مع بعض[١٥].

وقد يكونُ تأثير المجتمع في اللغة مقصوداً عندما ينتج عن مؤسسةٍ رسميَّةٍ أو طبقةٍ سلطويَّة تسعى إلى نشر فكر لغويٍّ غريب عن المجتمع الذي ينتمون إِليه كما هو الحال أثناء تنفيذ سياسات التتريك والفرنسة والأمركة إِبَّان

١٣ القاسمي، ص٥٩.

١٤ القاسمي، ص٥٩–٦٠.

١٥ حسن ظاظا، اللسان والإنسان، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٠، ص٩١.

احتلال هذه الدول للمنطقة العربيَّة، وكذلك ما قام به المجتمع البرجوازي عندما أنفق أموالاً هائلةً تفوق ما أنفقهُ على الشرطة والجيش والتسليح من أجل بناءِ لغةٍ جديدةٍ لغرسها في الوعي اعتقاداً منه أنَّ اللغة صارت تُستهلك تماماً كما يُستهلك الوقود اللاعضوي[١٦].

وأيضاً آمن مفكرو المجتمع الفرنسي الجديد إبَّان الثورة الفرنسيَّة بأَنَّ اللغة هي الأداة الرئيسة للسلطة في التَّأثير في الوعي الجماهيري[١٧].

وقد يستطيع الباحثُ أنْ يكتشفَ المستوى الحضاري لمجتمعٍ ما من خلال اللغة التي يستعملها هذا المجتمع، لأَنَّ اللغة تعبِّرُ عن طريقة تفكير ومسلَّمات وآراء من يستعملها.

يقول الدكتور نايف خرما: » حاول كثيرٌ من المفكِّرين أَنْ يربطوا بين طبيعةِ التركيبِ الصَّرفيِّ والنَّحويِّ للغةِ وبين طريقةِ تفكيرِ المجتمعِ الذي يتكلَّمُ بتلكَ اللغةِ، فربطوا بين ذلك التركيبِ أو تلكَ البنيةِ وبينَ الفلسفةِ ومظاهرِ التَّفكيرِ الأَخرى التي أنتجها وينتجُها ذلك المجتمع.

مثالُ ذلكَ أَنَهم حاولوا تفسيرَ مميزاتِ الفلسفةِ الأَلمانيَّة على أساس الطبيعة الخاصَةِ لبنية اللغةِ الأَلمانيَّة كما قالوا إنَ اللغةَ التي تتبعُ فيها الصِفةُ الموصوفَ كاللغةِ الفرنسيَّةِ واللغة العربيَّة مثلاً تشيرُ إلى مجتمعٍ متعوِّدٍ على طريقةِ التفكير الاستنتاجي (deductive) بينما تدلُّ اللغةُ التي تسبقُ فيها الصِّفةُ الاسم الموصوفَ كاللغة الإنكليزيَّةِ مثلاً على أَنَّ المجتمع الذي يتكلَمُ تلك اللغةَ يفكِّرُ بطريقةٍ استقرائيَّة (inductive)، وقالوا أَيضاً إنَّ اللغة التي لا

١٦ سيرجي قره مورزا، التلاعب بالوعي، ترجمة: عياد عيد، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٢، ص١٥٨–١٥٩.

١٧ سيرجي قره مورزا، ص١١٣.

يُميِّزُ التَركيبُ الصَرفيُّ والنَحويُّ فيها بينَ الحدثِ والفاعل والأَشياء كما تفعلُ اللغةُ الإنكليزيَّةُ مثلاً تشيرُ – كما هو الحال في بعض لغات الهنود الحمر– إلى أَنَّ المجتمعَ الذي يتكلَّمُ تلك اللغة مجتمعٌ يؤمن بالقدريَّةِ أَي: يعزو كل ما يحدثُ للقدرِ دونَ أَنْ يحاولَ فهم الأسبابِ والمسبِّباتِ، بل ذهبَ بعضُ هؤلاء إلى القولِ أَنَّ المجتمعَ الذي لا تتوافرُ في بنيةِ الأَفعال في اللغة التي يتكلَّمها ما يدلُّ على الزمن مجتمعٌ لا يعيرُ الزَّمن أَيَّ اهتمام، وإِنَّ المجتمعَ الذي لا تتوافرُ في لغته مصطلحاتٌ محدَّدةٌ خاصَةٌ بالعملياتِ المنطقيَةِ مجتمعٌ لا يستطيعُ أَنْ يقومَ بالتفكير المنطقيِّ أو بالتفكيرِ العلميَ المعقَّدِ»[١٨].

الجُزُرُ اللغويَّةُ:

الجُزُرُ اللغويَّةُ: هي مجتمعاتٌ محدودةُ العددِ نسبيًّاً انعزلتْ عن طوفان الكتل اللغويَّة الكبيرة المحيطةِ بها، فبقيت وحداتٍ لغويَّةً مستقلَّةً.

من ذلك مثلاً اللغةُ الأَلبانيَّةُ في العصر الحديثِ، ولغةٌ أُخرى كانت في الشَمالِ الشَّرقيِّ لإيطاليا في مقابل إقليم ألبانيا، ومن تلك الجزر اللغويَّةِ في المجتمعات المعاصرة لغةُ الباسك في فرنسا، ولغة النوبة أو بالأَحرى لغاتُ النوبة في مصر والسُّودانِ، واللغةُ السقطريَّة التي يتكلَّمُها العربُ من أهلِ جزيرةِ سقطرى[١٩].

فعلى مستوى اللغة الواحدة أو حتَّى اللهجةِ الواحدةِ تظهرُ جُزُرٌ متميِّزةٌ لظروفٍ اجتماعيَّةٍ أو اقتصاديَّةٍ معيَّنةٍ، فعندنا لهجةُ واحةِ سيوة التي يمتازُ

١٨ نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، مجلة عالم المعرفة، العدد التاسع، ١٩٧٨، ص١٧٩.

١٩ ظاظا، ص٩٢.

بها أَهلُها، وتكادُ لا تُفهمُ بين غيرها، وتتكرَّرُ أَمثالُ هذه الملاحظة إِذا تجوَّلنا في العالم العربيِّ من الخليج إِلى المحيط، بل في شتَّى لغاتِ العالم بفعلِ ظروفٍ محلِّيَّةٍ تعطي للنُّطْقِ وطريقةِ التَّفاهُمِ تلويناً خاصَّاً في جهاتٍ معيَّنةٍ[٢٠].

وقد تظهر ضمن المجتمع الواحدِ جزرٌ لغويَّةٌ خاصَّةٌ بالجنس الواحد، فيكون للنساء مثلاً لغةٌ خاصَةٌ تختلف عن لغة الرجال كما ه الحال في لغة مجتمع واحة سيوة في مصر، فالرجال يتكلَّمون اللغة العربيَّة إِلى جانبِ لغتهم السِّيويَّة المختلفة عن اللغة العربيَّة، بينما تتحدثُ النساءُ اللغة السيويَّة فقط، ولا يستطعن التعاملَ باللغة العربيَّة، وهذا مانجده أيضاً في المناطق النوبية في مصر أو البربرية في المغرب العربي والمهرية في شرق اليمن الجنوبية[٢١].

ويرى الدكتور حجازي أنَّ هذا التمايزُ وارتباط لغة بعينها بالرجال دون النساء يرجع إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية، فمجتمع النساء في هذه البيئات منفصلت مامًا عن التعامل الخارجي ولذا لم تدخله العربية لغة التعامل الخارجي ولغة التعليم والثقافة[٢٢].

ولأَنَّ المجتمعَ دائمُ التطوُّرِ فاللغةُ التي تسايرُهُ دائمةُ التَّطوُّرِ أَيضاً، وهي صورةٌ صادقةٌ لحضارته، فالمعجمُ اللغويُّ لأَمَّةٍ ما هو في نفسِ الوقتِ صورةٌ مخلصةٌ لِمَا تعرفُه هذه الأَمَّةِ في حياتها اليوميَّةِ وكيانها الاقتصاديِّ والسياسيِّ وسلوكِها الدِّيني والأَخلاقي وتقدُّمها العلمي والفني[٢٣].

وقد تظهر في الجزيرة اللغويَة الواحدة ازدواجيَّةٌ لغويَّةٌ، ففي هذه المجتمعات التي تعيش ضمن جزيرة لغويَّةٍ واحدةٍ يسود ازدواج لغوي، والمقصود بالازدواج اللغوي

٢٠ ظاظا، ص٩٢,

٢١ محمودفهميحجازي،علماللغةالعربية،دارغريبللطباعةوالنشروالتوزيع، ص٢٤.

٢٢ حجازي، ص٢٤.

٢٣ ظاظا، ص٩٣.

استخدامُ لغتين في بيئةواحدة، ونجد الازدواج اللغوي في الجزر اللغوية غير العربية في شمال العراق مثلا، فهناك عدة جزر لغوية آرامية في عدد من القرى الجبلية، وتُستخدم اللغة العربية في هذه الجزر اللغوية بدرجة اتصال أبناء هذه المناطق بالجماعة اللغوية العربية وبدرجة انتشار التعليم بينهم[٢٤].

الثَّابتُ والمتغيِّرُ في اللغة

أَمَّا فيما يتعلَّقُ بعاملِ المحافَظَةِ فإنَ اللغةَ بعدَ أَنْ تصبحَ قادرةً على أداءِ وظيفتها في التَّفاهُمِ بينَ أَبناءِ المجتمعِ الواحدِ تتحوَّلُ في ذلكَ المجتمعِ نفسِهِ إلى وسيلةٍ من وسائلِ التَّرفِ مَثَلُها في ذلك مَثَلُ الملابسِ والأَطعمةِ التي بمجرَّدِ خروجها من حيِّزِ الوقايةِ ضد تقلُّباتِ الجو أو خطِّ الجوعِ تصبحُ عالَماً حافلاً بإمكانيَّاتِ الأَبَّهةِ وامتيازِ طبقةٍ من النَّاسِ على طبقةٍ أُخرى أو فردٍ منهم على غيره[٢٥].

فالسُّوريُّون الذين ينتقلونَ للعيشِ في العاصمةِ دمشق يحاولونَ تقليدَ السلوكِ اللغويِّ للدِّمشقيِّينَ (اللهجة الشَّاميَّة) ومحاكاةَ لهجتهم، إذ إنَّها تصبحُ لهجةً موحَدةً، فكما أَنَّ اللغة الإنكليزيَّة لغةٌ موحَّدةٌ في العالم، فكذلكَ تصبح لهجةُ المجتمعِ الراقي مجتمعِ العاصمةِ لهجةً موحَّدةً يتكلَّمُ بها أَبناءُ الوطنِ الواحدِ من غير النَاطقينَ بها، ولعلَّ الدَّافعَ إلى فعلِهم هو إمَّا شعورٌ بالخجلِ فيما لو تكلَّموا بلهجاتهم المحليَّةِ الأَخرى التي تبدو ثقيلةً أَحياناً ذاتَ أَلفاظٍ جزلةٍ وأَسلوبٍ خشنٍ أَمامَ رقَّةِ اللهجة الشَّاميَّةِ ذاتِ الجرسِ العذبِ والأَلفاظِ السَّائغةِ السهلةِ، أو بسبب النظرِ إلى أَنَّ التَّكلُّم باللجةِ الشَاميَّةِ من شأنِهِ أَن يرتقي بالمستوى الاجتماعيِّ للفردِ، ويلحُقُهُ بركبِ المجتمعاتِ الرَّاقية.

٢٤ حجازي، ص٢٤.

٢٥ ظاظا، ص٩٣.

العامل الجمالي:

يؤثِّرُ المحيطُ الاجتماعيُّ باللغة كما يؤثِّرُ بأَيِّ نشاطٍ أو مظهرٍ آخر، فالطَّعامُ في معظم المجتمعات لم تعدْ قيمتُهُ منحصرةً في الوقايةِ من الموتِ جوعاً، بل أَصبحَ فنَّاً، وأَصبحتْ العنايةُ بمظهر الطعام من الأَولويَّاتِ كتزيين الطَبق والتَّرغيبِ فيه، وكذلك اللباسُ لم تنحصر قيمتهُ في التَستُّر من العرْي، بل أَصبحَ فنَّاً وميداناً للإبداع والجمال، وكذلك المسكن.

واللغة كذلك أيضاً، فلم يعد الإنسانُ يكتفي منها بمجرَدِ الفهم والإفهام، بل راح يتلذَّذُ بالجرسِ الحسنِ والصِّيغةِ الجميلةِ والتعبيرِ المحكمِ والصُّورةِ البيانيَّة الرائعةِ، وأَخذ يتذوَّقُ ذلك ويجتذبُ إليهِ انتباهَ أَبنائِهِ ومَنْ يهمُّه أَمرهم من ذويهِ، كما أَقامَ الأَسواقَ للشعرِ والأَدبِ والخطابةِ، وأَعطى المتفنِّنين في استعمالِ اللغةِ فرصاً نادرةً في قيادةِ المجتمع وحيازةِ الشَّرفِ والمجدِ والثَّروةِ[٢٦].

والقرآن الكريمُ ذلك الكتابُ الذي لا ريبَ فيهِ، والذي جاءَ هدىً للمتَّقين ونذيراً للعاصينَ حملَ إلى جانبِ رسالتهِ السَّامية وظيفةً جماليَّةً معجزةً، فهو نصٌّ دينيٌّ معجز، فهو كلامُ ربِّ العالمين أَنزله الرُّوحَ الأَمينُ على قلبِ الرسولِ الكريمِ محمَّدٍ صلَّى اللّه عليه وسلَّمَ، وهو الكتابُ الذي لا يأتيه الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفِهِ ولا من غيرِ ذلكَ.

فقد نزلَ القرآنُ الكريمُ في مجتمعٍ وصلَ الذُّروةَ في الفصاحةِ والبلاغةِ وطرائقِ البيانِ والتعبيرِ، حتَّى إذا تمَّ لهم ذلكَ أنزلَ ربُّ العزَّةِ كتابَهُ المعجزَ، وتحدَّاهم أَنْ يأتوا بسورةٍ أو آيةٍ من مثلِهِ، فلم يستطيعوا، وهم أَهلُ اللُّسُنِ وأُمراءُ

٢٦ ظاظا، ص٩٤.

البيانِ وزعماءُ الفصاحةِ والبلاغةِ وفحولُ الشعراء وكبارُ الخُطَبَاءِ، فكانَ القرآنُ معجزةً تناسبُ ما اشْتُهِرَ في المجتمعِ الذي نزل فيهِ لأَنَّهُ حملَ جانباً جماليَّاً لا يصلُ إليهِ أَحدٌ مهما أُوتيَ من قوَّةِ البيان.

ثمَّ إنَّ مجتمعاً لم يقوَ على الحفاظِ على لغتهِ من الاندثارِ والتغيُّرِ والتَّحوُّلِ مثل المجتمعِ العربيِّ الذي أَكرمَهُ اللّهُ سبحانَهُ وتعالى بخلودِ لغتهِ العربيَّةِ التي حفظَها بالقرآن الكريم حيث يقول اللّه تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[٢٧]، فالعربيَّةُ محفوظةٌ بفضائل القرآن المحفوظ.

فصحيحٌ أَنَّ العربيَّةَ تغيَّرَتْ، وانقسَمَتْ إلى لهجاتٍ لا تُعدُّ، ولا تُحصى إلَّا أَنَّ العربيَّةَ الفصحى لا تزالُ اللغةَ الرَّسميَّةَ والأَدبيَّةَ والعلميَّةَ في المحافلِ الدوليَّةِ والرسميَّةِ والمؤتمراتِ والندوات والمؤلَّفات والإعلام وغير ذلك، والعربيُّ الآن يفهمُ الفصحى كما يفهمُ العاميَّةَ، وإنَّ صعوبةَ بعضِ الأَلفاظِ التي قد يسمعُها وتُحيجُهُ إلى فتحَ المعاجم وكتب اللغة أو السؤالِ عن معناها لا تؤثِّرُ في فهمهِ على عكسِ اللغاتِ الأَجنبيَّةِ التي اندثَرَتْ وتشعَّبت إلى لهجاتٍ كثيرةٍ أَصبحتْ كلُّ لهجةٍ فيما بعدُ لغةً مستقلَّةً مدوَّنةً رسميَّةً.

الأَعراف اللُّغويَّةالاجتماعيَّة

أَصبحت اللغةُ – بل إنَّها منذ نشأتها – عُرفاً اجتماعيَّاً يصبُّ في العاداتِ والتَّقاليدِ للمجتمعاتِ والشعوبِ والأُممِ، فقد اهتمَّ المجتمع الإسلاميُّ باللغةِ وأَولاها عنايةً خاصَّةً، فحثَّ على إلقاء التَّحيَّة، وجعلَ لها صيغةً مندوبةً هي (السَّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته)، فإلقاء التَّحيَة في المجتمع الإسلاميِّ سنَّةٌ مؤكَّدةٌ عن الرسول صلَّى اللّه عليه وسلَّمَ، وردُّها واجبٌ يُكافأُ

٢٧ سورة الحجر/٩.

فاعلُها ويأثَمُ تاركها، وقد حثَّ الإسلام على طيبِ الكلام، قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا»[٢٨]، ونهى عن الكلام الخبيث الفاحش، قال تعالى: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ»[٢٩]، فهذه الأوامر والنَّواهي صارت عرفاً في لغة المجتمعِ الإسلاميِّ.

وللخطابة أَيضاً في الإسلام في المناسباتِ الدِّينيَّة والاجتماعيَّةِ أَعرافٌ لغويَّةٌ خاصَّةٌ بها، كما تدخلُ اللغةُ والسُّلوكُ اللغويُّ في الأَعرافِ القانونيَّةِ والحقوقيَّةِ والقضائيَّةِ في المحاكم وأروقةِ قصور العدل في العصرِ الحديثِ، وهذه الأعراف القضائيَّة اللغويَّة ليستْ وليدةَ الحاضر، بل كانت منتشرةً في المجتمعات القبليَّة والعشائريَّة إلى فترةٍ قريبةٍ من وقتنا الرَّاهن، ولا سيَّما في المجتمع العشائري الأردني، إذ يجلس القاضي العشائري الأَردني ومن حوله الحضور والشهود والمتَّهم والمدَّعي، وتُفتح الجلسةُ بعباراتٍ مشهورةٍ مثل: يا قضي العرب يا فكَّاك النَّشب، أو: يا قاضي يا قاضينا يا مَن بالحق ترضينا، وغيرها من عباراتٍ دينيَّة كالبسملة والحمد والصلاة على النبي، وقد يلجأ المتَّهمُ إلى أداء القسم بصيغةٍ يُحدِّدها له القاضي بحيث لا يستطيعُ المتَّهمُ معها المراوغةَ والاحتيالَ والتَّملُّصَ من حقيقةِ القسم.

ومن الأَعرافِ اللغويَّة الاجتماعيَّةِ المصالحاتُ العشائريَّةُ أَيضاً بما يتخلَّلها من إلقاءٍ للكلمات والعبارات التي تحثُّ على الصُّلحَ وتُرغِّبُ في التَّسامحَ، وتدعو إلى حقنِ الدِّماء، وتمدحُ أَطرافَ الصُّلحَ والرَّاعينَ لهُ والمبادرينَ إليهِ، وغيرُ

٢٨ سورة إبراهيم/٢٤–٢٥.

٢٩ سورة إبراهيم/٢٦.

ذلك من الأَعراف الاجتماعيَّةِ اللغويَّةِ التي تشكِّلُ اللغةُ أَحدَ مقوِّماتها كالزواجَ والطلاقِ والعقودِ والتِّجاراتِ وغير ذلك.

فالأعراف اللغويَّة قد تكونُ نتيجةً للأعراف الاجتماعيَّة السائدة في المجتمع، فالعيبُ في عُرف المجتمع قد ينعكس على اللغة بما يُعرف بالمناهي اللفظيَّة أو المحظور اللفظيِّ، يقول الدكتور نايف خرما: » لقد ذكرنا في عدَّةِ مناسباتٍ سابقةٍ أَنَّ استعمالَ اللغةَ محكومٌ بقواعدِ، وهذه القواعدُ نوعان: نوعٌ يتعلَّقُ بتركيبِ اللغةِ نفسِها أَصواتاً وقواعدَ، ونوعٌ آخرُ يتعلَّقُ بالاستعمالِ الفعلي، وهذه القواعد الأخيرة في معظمها قواعدُ اجتماعيَّةٌ وضعيَّةٌ تختلفُ في المادَّةِ من مجتمعٍ إلى آخر حتَّى لو كانَ المجتمعان يستعملانِ نفس اللغة، وعلى الفردِ الذي يعيشُ في مجتمعٍ ما أَنْ يتقيَّدَ بهذه القواعدِ إذا كان راغباً في أَنْ يبقى عضواً مقبولاً في ذلكَ المجتمعِ، وبعضُ هذه القواعدُ كما رأينا تنظِّمُ استخدامَ الأَساليبَ المختلفةَ في المقاماتِ المختلفةِ، بينما يحظرُ بعضُها الآخر استخدام بعض الكلمات أو العباراتِ على اعتبارِ أَنَّها كلماتٌ أو عباراتٌ غير مهذَّبةٍ أو بذيْئَةٍ، وهذه القواعدُ ليستْ – كما يتصوَّرُ البعضُ – مقصورةً على المجتمعاتِ الراقيةِ ودالَّةً على الرقيِّ والتَّأدُّبِ ورهافةِ الحسِّ والذَّوقِ، بل هي موجودةٌ حتى في أَكثرِ المجتمعاتِ بدائيَّةً، فلدى قبيلة الهنودِ الحمر المسمَّاة (زوني) قواعدُها الخاصَّةُ لاستعمالِ الأَساليبِ اللغويَّةِ المختلفةِ ولحظرِ استعمالِ بعضِ الكلماتِ، فلديهم ثلاثةُ أَساليبَ للكلام: أُسلوبُ الحديثِ العاديِّ، وأُسلوبُ الكلامِ المقدَّسِ، وأُسلوبُ العَبَثِ واللَّهو، ولكلٍّ من هذه الأَساليبِ مقاماتُها المختلفة التي يجبُ أَنْ تُستعملُ فيها، كما أَنَّ لديهم بعضُ الكلماتِ المحظورِ استعمالُها مثل كلمة (تكة) التي تعنى (ضفادع)، والتي يُحظرُ التَّفوُّهُ

بها في أَثناءِ القيام ببعضِ الطقوسِ الدِّينيَّةِ مثلاً، كما يُحظرُ استعمالُ الكلمةِ التي تدلُّ على الأَمريكيِّ الأَبيضِ في نفسِ المناسبات»[٣٠].

وليسَ التعريبُ إِلَّا مظهراً اجتماعيَّاً، فهو نتيجةٌ اجتماعيَّةٌ لاحتكاكِ الشعوبِ والأُممِ، إِنَّهُ أَحدُ مظاهرِ هذا الاحتكاكِ، ومن مفرزاتِ التبادلِ الحضاريِّ والفكريِّ والثقافيِّ واللغويِّ، وهو ظاهرةٌ لغويَّةٌ عامَّةٌ عالميَّةٌ لا تختصُّ بلغةٍ دون أُخرى، فكلُّ لغاتِ العالمِ أَخذتْ واقترضتْ من بعضها، و أَعطتْ وأَقرضتْ بعضَها.

وهو ليسَ عيباً أَو عاراً على اللغةِ، فشبكةُ العلاقاتِ اللغويَّةِ بين المجتمعاتِ مبنيّةٌ على شبكةِ العلاقاتِ الاجتماعيَّةِ بينها، والتعريبُ مقياسٌ حقيقيٌّ وصادقٌ وعلميٌّ وموضوعيٌّ نستطيعُ بهِ أَنْ نعرفَ معلوماتٍ جغرافيَّةٍ وتاريخيَّةٍ عن مجتمعٍ من المجتمعاتِ لأَنَّ اللغةَ تقترضُ من اللغاتِ المجاورةِ لها أَو اللغاتِ البعيدةِ عنها، لكن بسبب المبادلاتِ التِّجاريَّة أو الحروبِ وغيرها.

فالمجتمعُ يقترضُ أَلفاظاً من المجتمعاتِ المجاورةِ له في الرقعةِ الجغرافيَّةِ والإقليمِ الواحدِ، ففي بلادِ الشَّام مثلاً ثمَّةَ أَلفاظٌ مُقتَرَضَةٌ من المجتمعِ التُّركيِّ بحكمِ علاقةِ الجوار نحو كلمة: أُوضة وبشكير، وثمَّةَ كلماتٌ مُقْتَرَضَةٌ من المجتمعَين الفرنسي والإِنكليزي البعيدَينِ عنَّا، وذلكَ بسبب الاحتلال الفرنسي والإنكليزي لنا.

٣٠ خرما، ص١٩٩–٢٠٠.

فعاملُ المحافظةِ إذن كانَ دائماً كابحاً للتطوُّرِ اللغويِّ لأَنَّهُ ينطلقُ من فكرةٍ أَساسيَّةٍ وهي أَنَّ اللغةَ تراثٌ قوميٌ، وقد يكونُ دينيَّاً أَيضاً تقتضي الأَمانةُ الحفاظَ عليهِ كما كانَ على عهدِ السَّلفِ[٣١].

وأَمَّا عاملُ التَّطوُّرِ فهو عاملٌ ثوريٌّ متمرِّدٌ على الجمودِ تقفُ من ورائه الحضارةُ قوَّةً دافعةً، فاختلاطُ النَّاسِ بعضهم ببعضٍ، والرحلةُ من مكانٍ إلى آخرَ، ووجودِ عناصرَ بشريَّةٍ جديدةٍ تدخلُ على مجموعةٍ مستقرَةٍ، فتؤثِّرُ في نطقها، والهجرةُ الجماعيَّةُ من البيئة الأَصليَّةِ إلى أَمصار بعيدةٍ أُخرى، كل ذلكَ يحدثُ عاهاتٍ عميقةٍ في شكل اللغةِ، بل يظهرُ في لهجاتٍ تتنوَّعُ وتنفصلُ عن اللغةِ الأُمِّ[٣٢].

وإِنَّ التَّحوُّلاتِ الاجتماعيَّةَ والمنعطفاتِ المهمَّةَ والظَّواهرَ البارزةَ في المجتمعاتِ هي المحرِّكَ الأَساسيَّ للتَّطوُّرِ اللغويِّ والتغيُّراتِ الصَّوتيَّةِ في الأَلفاظِ ونقلِ دلالاتِ الأَلفاظِ ورُقيِّ الدّلالةِ أو انحطاطها وابتداعِ أَلفاظٍ جديدةٍ.

ولعلَّ الابتداعَ الذي هو أَلصقُ الظواهرِ بنمو الثروةِ اللفظيَّةِ في اللغةِ العربيَّةِ من أَوضحَ الشَّواهدِ على خضوعِ اللغةِ لنواميسِ الحضارةِ والاجتماعِ[٣٣].

فمن الأَلفاظِ المبتدعةِ: المئذنةُ والجامعُ والمسجدُ والصَّلاةُ، ومن الأَلفاظِ المنقولةِ إلى معانٍ جديدةٍ: القطارُ والمدفعُ والسيَّارةُ، ومن الأَلفاظِ المقترَضَةِ: الصِّراطُ والخندقُ والسُّكَّرُ والتَّبغُ والبرتقالُ.

ويرى الدكتور محمود فهمي حجازي أَنَّ بعض الأعراف اللغويَّة قد تكونُ فرديَّةً في بداياتها، ثم تصير أعرافاً لغويَّةً لدى المجتمع، وليس كل التغييرات

٣١ ظاظا، ص٩٥.
٣٢ ظاظا، ص٩٥.
٣٣ ظاظا، ص٩٧.

اللُّغويَّة مقبولةً في المجتمع يقول الدكتور محمود فهمي حجازي: » يهتم علم اللغة بالتغيُّر اللغوي على المستوى الاجتماعي، ويرجع التغير اللغوي دائما إلى تجديد فردي يقبله المجتمع، أمَّا التجديد الذي يرفضه المجتمع في بقى خارج مجال علم اللغة لأنَّ علم اللغة يبحث اللغة باعتبارها ظاهرةًا اجتماعيَّةً، وليس كلُّ تغيُّرٍ لغويٍّ عند فرد ما أو مجموعة أفراد يُقبَل اجتماعيًّا، فإلى جانب تغيُّراتٍ بدأت على مستوى الفرد، ثم أصبحت على مستوى البيئة اللغوية كلِّها، هناك تجديداتٌ فردية ظلت مرتبطة بمجموعة أفرادٍ، ولم تُقبلْ اجتماعيًّا. وقد لوحظ مثلا أن نطق الراء في الفرنسية الباريسية بدأ هكذا منذ قرن عند أحد المرموقين في الدولة، ثم قلده رجال البلاط وتلاهم عددٌ من أبناء الطبقات المترفة، وأصبح هذا النطق هو العرف اللغوي السائد»[٣٤].

وقد تكون هذه الأعراف اللغويَّة وليدة سياساتٍ أو توجُّهاتٍ فكريَّةٍ كما هو الحال عندما تسهم وسائل الإعلام والمفكِّرون والأدباءُ في تشكيل أعرافٍ لغويَّةٍ في المجتمع، يقول الدكتور حجازي: » إن للعلماء والمثقفين ووسائل الإعلام أثرًا كبيرًا في البيئة اللغوية، وفي المجال الصوتي تعد الإذاعة من العوامل الحاسمة، فالنطق الذي يرتضيه مذيع والإذاعة يؤثر في آلاف المستمعين، ولذا تهتمد ولكثيرة في العالم المعاصر بكيفيَّةِ نُطق المذيعينَ وتدرِّبهمتد ريبًا صوتيًّا دقيقًا، ويؤثر المحاضر ونَفي الجامعات في الحياة اللغوية من ناحية المصطلحات، فهم يُدخِلُون بصفةٍ مطَّردةٍ مصطلحاتٍ علميَّةٍ جديدةٍ للتعبير عن المعاني الجديدة أو العلوم الحديثة، فتُستخدم هذه المصطلحات عند طلابهم وقُرائهم، ثم في دوائر أوسع إلى أن تستقر في العرف اللغوي، وبذلك تصبح من المشاع اللغوي العام، فإن اختلف واضعوا الاصطلاحات وتعددت معهم اصطلاحاتهم للشيء

٣٤ حجازي، ص٢٧.

الواحد حدث ارتباك في استخدام المصطلحات، وربَّما تعذَّر التفاهم، ويؤثر كبارُ الكتاب والأدباء في الحياة اللغوية من ناحية التراكيب بصفة خاصة، ولكن أينطق جديد أو اصطلاح جديد أو تركيب أسلوبي جديد يظل ظاهرة فردية إلى أن يقبل اجتماعيًّا و يصبح من العرف اللغوي، وكثيرٌ مما يستحدث في الإذاعة و وسائل الإعلام وفي الجامعات وعند كبار الأدباء يُقبل اجتماعيًّا، ولذا تعد هذه الدوائر الحاكمة لغويًّا أهم ما يؤثر في الحياة اللغوية المعاصرة»[٣٥].

كذلك تؤثِّرُ الصِّبغةُ العامَّةُ التي يتَّسمُ بها نشاطُ المجتمعِ في عصرٍ من العصورِ على أُسلوبهِ في الأَداءِ؛ ففي العصورِ الوسطى كانت الحياةُ تسيرُ في تقاليد رتيبةٍ بطيئةٍ في كلِّ أَنحائها، وكان مرورُ الزَّمن بطيئاً، فكانَ يلذُّ للناسِ إذا قرؤوا أَنْ يكونَ الكتابَ مُسهَباً مطوَّلاً حتَّى تدومَ التَّسليةُ وقتاً طويلاً[٣٦].

وكما يؤثِّرُ المجتمعُ بمعناه الواسعِ في تطوُّرِ اللغةِ تتأثَّرُ أَيضاً بالمجتمعات الضَّيِّقةِ في داخلِ المجتمعِ الواحدِ، فتظهرُ ألفاظٌ وتعابيرُ خاصَّةٌ بأَصحابِ الحِرَفِ المختلفةِ لا يكادُ يعرفُها غيرُهم[٣٧].

فالتطورات اللغويَّة كثيرة المصادرِ والأسباب، لكنَّها كي تصبح من الأعراف اللغويَّة الاجتماعيَّة لا بدَ أَن تخضع لمعايير الذوق العام للمجتمع لأنَ الذوق العام للمجتمع هو من يحكم بقبولها أو رفضها.

نتائج البحث:

توصَّل البحث إلى النتائج الآتية:

٣٥ حجازي، ص٢٨.
٣٦ ظاظا، ص١٠٤.
٣٧ ظاظا، ص١٠٤.

اللغة ظاهر اجتماعيَّة تتأثَّرُ بالمجتمع وتؤثِّرُ به.

١. قد تكون اللغة أداة تغيير فكريٍّ أو سياسيٍّ أو اقتصاديٍ في المجتمع عن طريق توظيفها التوظيف الصحيح كما أنَّها قد تستعمل للكشف عن معتقدات مجتمعٍ ما وآليَّة تفكيره ومستوى ثقافته وتطوُّره الحضاري.

٢. يختلف المعجم اللغوي لمجتمع ما عن غيره من المجتمعات تبعاً للبيئة الجغرافيَّة التي يعيشُ فيها ذلك المجتمع، فنجد في اللغة العربيَّة مثلاً معجماً لغويَّاً ضخماً عن البيئة الصحراوية وحيواناتها ونباتاتها وحياتها بينما تفتقر لغات كثيرة تعيشُ في بيئات مختلفة لمثل هذا المعجم.

٣. عندما تصبح لغةٌ ما قادرةً على أداءِ وظيفتها في التَّفاهُمِ بينَ أَبناءِ المجتمعِ الواحدِ تتحوَّلُ في ذلكَ المجتمعِ نفسِهِ إلى وسيلةٍ من وسائلِ التَّرفِ، أو قد تصبح لغةً موحَّدةً أو لغة المجتمع الراقي.

٤. قد تصبح اللغة في مجتمعٍ ما إحدى مصادر الجمال في ذلك المجتمع كاللباس والزينة وغيرها من مظاهر الترف.

٥. اللغة بوصفها عرفاً اجتماعيًّا قد تتأثَّرُ بالأعراف الاجتماعيَّة، فتظهر في المجتمع أعرافٌ لغويَّةٌ قد تكونُ خاصَّةً بمجتمعٍ دون آخر، ويتجلَّى ذلك في المناهي اللفظيَّة والمحظور اللغوي.

قائمة المصادر والمراجع

أزمة المصطلح في الوطن العربي، بسَّام احمد العلي، مجلَّة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، العدد ٥٩٦،السنة ٥٢،عام ٢٠١٣.

أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، مجلة عالم المعرفة، العدد التاسع، ١٩٧٨.

التداوليَّة اليوم، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت،ط١.

التلاعب بالوعي، سيرجي قر ه مورزا، ترجمة: عياد عيد، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارةالثقافة، دمشق، ٢٠١٢.

ديوان زهير بن أبي سُلمى، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

شرح ديوان عنترة العبسي، الخطيب التبريزي, دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

علم اللغة العربية، محمود فهمي حجازي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

علم المصطلح «أسسه النظرية وتطبيقاته العملية»، علي القاسمي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،ط١، ٢٠٠٨.

فقه اللغة وسر العربيَّة، الثَّعالبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

اللسان والإنسان، حسن ظاظا، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٠.

لكل كلمة قوتها، إيفو ن أوز والد، مكتبة جرير، الرياض،ط١، ٢٠٠٩.